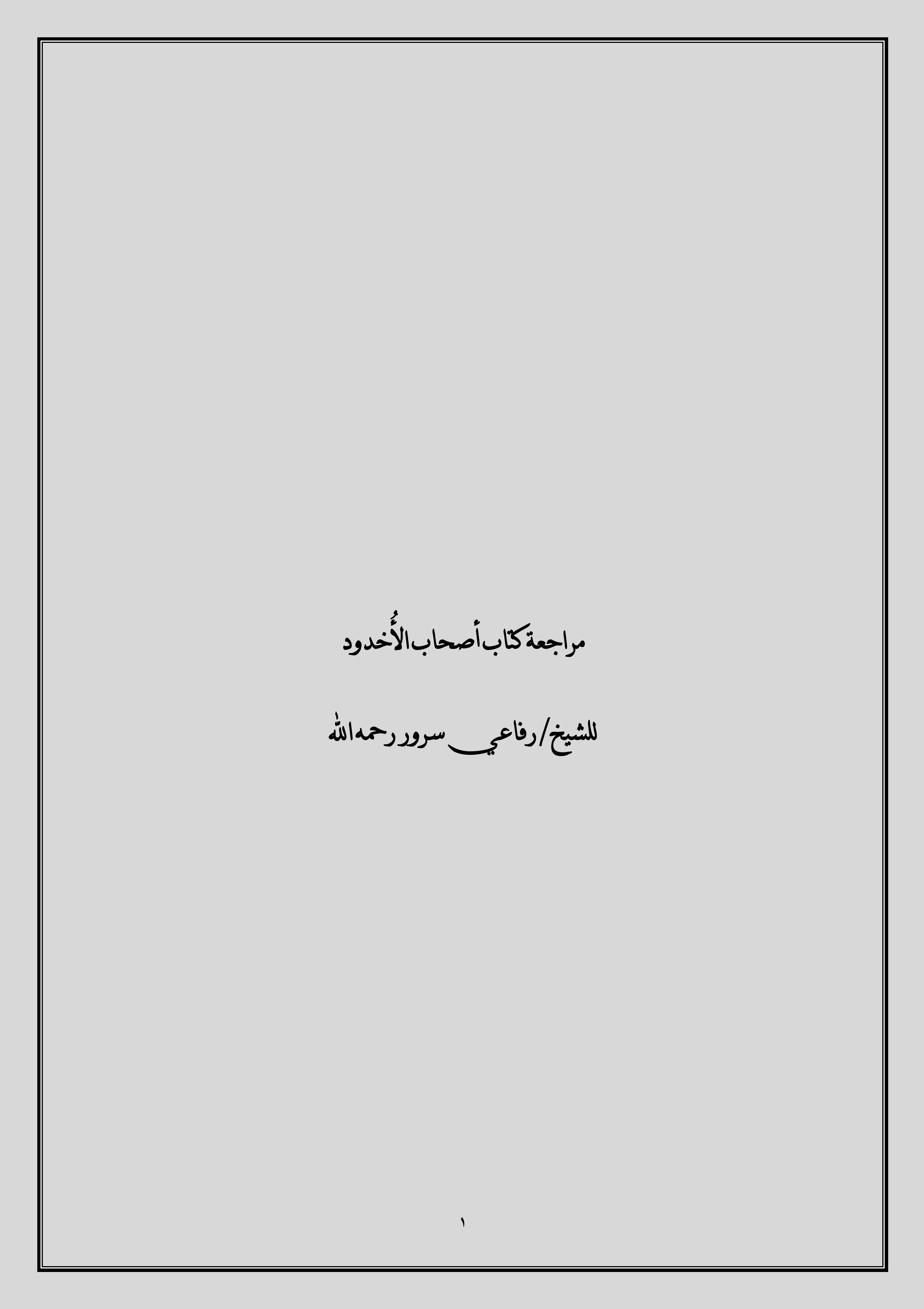


مراجعة كتاب أصحاب الأُخدود

للشيخ/ رفاعي سرور رحمه الله

أصحاب الأخدود..

ذلك الكتاب الذي ألفه صاحبه في عامه الثامن عشر متأثرا بمقتل الشهيد بإذن ربه سيد قطب -تقبله الله-، وقصة التأليف ترجع إلى أنه يوم قُتِل سيد -رحمه الله وأسكنه فسيح جناته- وكان المؤلف وهو الشيخ رفاعي سرور -رحمه الله- مُحبا له مُتأثرا به، يوم أعدم عبد الناصر -عليه لعنات الله- شهيد الكلمة سيد قطب -رحمه الله- رجع الشيخ رفاعي إلى بيته وظل يبكي بكاء شديدا، فقالت له جدته: وهل سيرجع بكاءك من ذهب؟! فقام يكتب، فإذا بكتابنا الذي بين أيدينا هذا، والذي تشعر فيه بكل كلمة كأنما يعيش الكاتب في تلك القصة بنفسه، ولنُلقِ نظرة على المؤلف لنعلم من هو..

نظرة على المؤلف

رفاعي سرور، اسم إذا سمعته تصورت أمامك رجلا فذا فريدا عالما مربيا مُجاهدا. منذ صغره وهو يعيش للدعوة وفي سبيل الدعوة، فألف في مُقتبل عمره قبل بلوغه العشرين كتاب أصحاب الأخدود، وكان تأليفه له بعد مقتل سيد قطب -رحمه الله- وكان ذلك إخراجا لطاقة الحزن على مقتل أسد الدعوة -رحمه الله- والكتاب انتشر انتشارا كبيرا وطُبِع فوق الأربعة عشر طبعة، وهو الكتاب الذي يعيش فيه الكاتب مع أصحاب الأخدود وهم يُحرقون في النار التي أعدها الظالمون لهم بعد إيمانهم مع إسقاط للقصة على أرض الواقع حيث قُتل سيد رحمه الله على أيدي الظالمين وهو من أهم الكتب التي تؤسس للدعوة وتجعل في قلوب المؤمنين عقيدة صلبة قوية يواجهون بها الطغاة.

وللشيخ -رحمه الله- رصيد كبير من التضحية في سبيل الدعوة، فقد سُجن هو وأولاده وضُيِّق عليهم، ومع ذلك صبر واحتسب ذلك في سبيل الدعوة، ومن أجل نيل الجزاء عن الله في الآخرة.

والشيخ -رحمه الله- رجل بصير ذو عقل مميز، يعلم قدر الدعوة وقدر الرسالة التي يحملها، فتجده مبدعا في توضيح قضايا الدعوة وإيصال الرسالة، ولا شك أنها فيوضات من الله عز وجل يُفيضها على من اطلع على قلبه فوجده حاملا لهم الدعوة يعيش كل لحظة من أجلها. وقد أحسن الشيخ في تربية أولاده وتلقينهم أصول الدين وقضاياه فعاشوا هم أيضا في سبيل هذه الدعوة التي عاش أبوهم عمره كله من أجلها، فاستشهد أحدهم في سبيل الله -نحسبه كذلك والله حسيبه- وأُسرت زوجته وأولاده، وأُسر ابن آخر له، وعاشت أسرته من بعده حياة الدعوة والجهاد والتضحية في سبيل الدعوة وفي سبيل إيصال الرسالة..

ومؤلفاته كلها تتسم بالعمق والأصالة والاعتزاز بالدين، ومن أهمها كتاب (عندما ترعى الذئاب الغنم) و (التصور السياسي للحركة الإسلامية) و (وحكمة الدعوة) وغيرهم من الكتب.

رحم الله الشيخ ورحم ابنه عمر وتقبله في الشهداء وفك أسر المأسورين من أهله وأسرى المسلمين جميعا.

* أصحاب الأخدود *

وقف لازم في قراءة تاريخية للدعوة، ودرس تام في منهجها، وتجربة كاملة في واقعها، وهذا هو الطريق..

تكمن أهمية القصة في كونها حديث المستضعفين، ودرس الذين عاشوا الدعوة في أيام الآلام والعذاب، ويؤكد هذه القيمة الأساسية للقصة أن الراوي لها هو صهيب الرومي والذي دفعه لروايتها عمق تأثره بمعانيها التي تناسب حاله، إذْ أنه كان من المستضعفين الذين خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى أرض الإسلام، من مكة إلى المدينة، وزيادة في الاستضعاف أن المشركين أوقفوه في طريقه للمدينة فسألوه مالَه مقابل تركهم له، فدلهم

على ماله وضحى به في سبيل الله، وأكمل هجرته إلى المدينة.. ويشاركه في رواية جزء من القصة سيدنا خباب رضي الله عنه، وهو الناطق برجاء كل المستضعفين حين أتى للنبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُردة عند الكعبة فقال له: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: " لقد كان يؤتى بالرجل فيمن قبلكم فيوضع المنشار في مفرق رأسه فيشقه نصفين، لا يرده ذلك عن دينه شيء، ولكنكم قوم تستعجلون " ..

ثم أمر آخر يعطي القصة تلك الأهمية، وهو كونها تجربة كاملة للدعوة في كل مراحلها وأحداثها، بداية من الدعوة السرية إلى مرحلة الإيمان الجماعي متضمنة النقلة الأساسية للدعوة من السرية إلى العلنية..

وأمر أخير يوضح أهمية القصة، وهو أن أحداثها تحقيق مباشر لقدر الله، مما يجعلها مجال بحث دقيق لتحديد منهج الدعوة بتصور القدر والأسباب ليصبح المنهج قادرا على تحقيق الواقع الإسلامي الذي نسعى إليه.

البداية..

جاءت القصة مجردة دون ذكر للزمان والمكان، لتكون الاستفادة منها في قضية الدعوة دون التعلق بظروفها وملابساتها وهذا يحدده لفظ " كان ملك فيمن كان قبلكم " ..

ثم تبدأ القصة بقضية مهمة لا بد لأصحاب الدعوة من إحكام تصورها جيدا إذ أنها تمثل قضية محورية في الدعوة، ألا وهي أن على أصحاب الدعوة أن يضعوا نُصب أعينهم أنهم لا بد لهم من مواجهة السلطة الجاهلية المسيطرة على واقع الناس المراد تحقيق غاية الدعوة فيهم، وتلك قضية برزت بوضوح في قصة موسى عليه السلام حين قال الله له: " اذهب إلى فِرعون إنه طغى " ويُبرزُ ذلك أن الرسالة لم تكن أصلا لفرعون وإنما كانت لبني إسرائيل، لكن المواجهة مع فرعون كانت ضرورية لأنه المسيطر على واقع بني

إسرائيل، وهنا يؤكد الكاتب أن أي دعوة في واقع الناس لا تضع في تصوراتها ضرورة مواجهة السلطة الباطلة ستكون قَتيلةً بسنن الوجود وتُلفظ من الواقع.. فالدعوة لجميع الناس، حاكمين ومحكومين، ودعوةٌ للحاكمين فقط ستكون وسيلة للحكم الباطل، ودعوةٌ للمحكومين فقط ستصبح خاضعة للحكم الباطل.. ويوضح الكاتب في ضوء تجربة النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الحكم ضرورة في تصور الدعوة ولكنه لن يأتي منحة من المُغتصبين له، ولن يتحقق بالمساومات الرخيصة، وإنما يجب أن يُسترد بالجهاد والعمل ليكون ولاية شرعية حقيقية وليس مجرد تسلط شخصي أو سيادة فردية دون إمكانيات القيام بالحكم والاستمرار فيه بعد الوصول إليه، وتلك قضية غفلت عنها كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة مما أدى لسلوكهم طريقا خاطئا أدى بهم في كل الأحوال إلى الكوارث، فحركة تسالم السلطة الجاهلية وتظن بها خيرا، وأخرى تسعى للسلطة بطريق الديموقراطية، وغيرهم تظن دعوة الناس دون التطرق لأمر السلطة ينجيها من بطش السلطة بها، وغير ذلك الكثير والكثير من المهازل.. ثم يضرب الكاتب بعض أمثلة على أناس كانوا في رأس الحكم ولم يملكوا الإمكانيات لإقامة الحكم الإسلامي.. ويؤكد الكاتب على أن الاستضعاف لا ينبغي أن يمنع من ضرورة المواجهة، وعدم اعتبار الإمكانيات ليس فيه أي تهور، والمواجه للسلطة بنفسه دون أي اعتبار للإمكانيات هو سيد الشهداء " سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ".

واقع القصة..

ولفهم الواقع الذي كانت فيه تلك التجربة الدعوية يذكر الحديث لنا أنه كان للملك في ذلك الواقع ساحر، يستخدمه الملك ليحكم بالسحر، وحينما يحكم السحر في الواقع فلا بد أن ذلك الواقع فاسد مليء بالظلم ومحكوم بالهوى، إذ أن الحكم في الواقع هو المحصلة النهائية لكل الأبعاد الاجتماعية، والسحر ضروري لهذا الملك الظالم حيث

يحقق له كل ما يريده ليحكم الناس بظلمه، ويوازي السحر في تأثيره كل منهج ليس من عند الله يخضع له الناس، بما يحققه من نتائج هي نفس نتائج السحر.

ثم تنتقل بنا القصة لتصف لنا بطانة السوء التي يُهمها أن تبقى الأوضاع كما هي بما يخدم مصالحها، فنرى الساحر لما كبر طلب من الملك أن يأتي له بغلام يعلمه السحر من بعده ليُكمل المسيرة من بعده، وينبه الشيخ على ملمح جديد في القصة وهو أن الساحر انتفت في ذلك مصلحته الشخصية لأنه سيموت ولن يستفيد من شيء، لكنه لما عاش حياته كلها بالباطل وفي سبيل الباطل تجذَّرت في نفسه محبه هذا الباطل فلم يعد يريد له أن ينقطع أبدا فأتى بالغلام ليكمل المسيرة من بعده فيستمر السحر الذي يُعَبّد الناس بالباطل لذلك الملك الظالم.

الغلام بين الساحر والراهب..

وتجري بنا الأحداث لنرى الملك وقد أتى للساحر بغلام، وهنا يتقطع القلب من الحزن على غلمان تخطفهم الجاهلية في كل زمان ومكان، فذلك الغلام الذي أُتِي به في السابق ليتعلم السحر، نراه اليوم في كل شاب وفتاة وقد أُتِيَ بهم ليتعلموا كل أنواع الفساد، وفي الماضي والحاضر نود لو أننا نمد أيدينا لنسترجع ذلك الغلام الذي يمثل الفطرة في الواقع، والفطرة هي رصيد الدعوة في الواقع وحين تفسد لن يبقى للدعوة أي وجود أو امتداد، والداعية الحقيقي هو الذي يشعر بمسئوليته تجاه تلك الفطرة، ويسعى لحمايتها من أي تأثير جاهلي.

وبينما يستمر الغلام في رحلة تعلم السحر من الساحر، إذ وجد راهبا يمر عليه في طريقه للساحر بقدر الله عز وجل، فيقعد إليه ليسمع منه، ولم يكن من السهل على الغلام ذلك بسبب تناقض السحر مع المنهج الرباني الذي يسمعه من الراهب، لكنه كان يذهب للساحر مكرها ويقعد للراهب راغبا، لأنه كان يصر على قعوده للراهب رغم أن الساحر

كان يضربه لتأخره عنه، وقد مثل الضرب للغلام ابتلاء أراد الله به أن يربي هذا الغلام من البداية تربية كاملة متوافقة مع طبيعة الدعوة التي هي في أول لحظاتها بلاء.

قضية تربوية..

ونأتي إلى ملمح هام نبه عليه الكاتب، ألا وهو شكوى الغلام للراهب من ذلك البلاء ومعالجة الراهب لتلك الشكوى مستندا في ذلك على فهمه للواقع جيدا، وشكوى الغلام للراهب من الضرب لم تكن شكوى من يتحجج ليهرب من المسئولية ولكن شكوى من ظهرت له مشكلة تَعوقه عن السير في الطريق ويريد لها حلا، ووفق الواقع الذي اعتبره الراهب دار حرب كان جوابه وحله لتلك المشكلة أن يكذب الغلام على الساحر وعلى أهله قائلا له: " إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر " والراهب يمثل الداعية الذي لا بد أن يشعر بمشاكل كل غلام يسير في طريق الدعوة، وحل تلك المشاكل واجب تفرضه الدعوة على كل داعية يربي الناس ليمهد لهم الطريق.

ودائما.. مع شدة البلاء والأذى والاستضعاف تأتي الآيات التي تُعين على الصبر وتُطمئن النفوس وتشرح الصدور وتضع نُصبَ الأعين أن النصر آت ولو طال الأمد، وأن الطريق صحيح ولو كثرت فيه العقبات، فتأتي حادثة الدابة التي تسد على الناس طريقهم فيمسك الغلام بالحجر ليرمي الدابة قائلا: " اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة " ويتضح من الصيغة أنه كان مطمئنا للراهب ولدين الراهب لكنه كان يريد شيئا يؤكد له صحة هذا الطريق، فلقد كان يطلب اليقين من الواقع بعد اليقين بالفطرة ، فجاءته تلك الآية والعلامة بقدر الله فقتلها ليمضي الناس في طريقهم، ويُنبه الكاتب على أن الدابة تمثل كل طاغوت يسد على الناس الطريق إلى الهداية، ولقد أنعم الله علينا في واقعنا بآيات وعلامات تُثبت صحة الطريق، وما تحرير بلاد الأفغان وتحرر الأسرى الستة من سجون اليهود عنا ببعيد.

ويأتي ملمح هام آخر ينبه عليه الكاتب، ألا وهو التعامل بين الدعاة والشباب والغلمان الذين ساروا في طريق الدعوة، فنرى التصرف الطبيعي التلقائي أن الغلام لما واجه الدابة وفعل ما فعل، رجع إلى الراهب ليخبره فورا بما حدث، وذلك أمر طبيعي يجب أن ينتبه إليه الدعاة، ويجب عليهم ألا يُظهروا أي ضجر أو ضيق من ذلك الأمر، لأنهم الملاذ الذي يرجع إليه الشباب والغلمان باحثين عن أجوبة وتفاسير لكل ما يواجهونه في واقعهم، وتعامل الدعاة معهم لا بد أن يكون مشابها لتعامل الراهب مع الغلام، فلا يتسم الداعية أبدا بحب الظهور والتميز والتعالي ورؤية نفسه فوق الشباب الذين ما زالوا حديثي عهد بالتزام، وتلك عورة نفسية قبيحة تنكشف حتما إذا واجه الإنسان موقفا يشعر فيه أن هناك من هو أفضل منه في فهم الدعوة وأقدر على تحقيق مصلحتها، وكم رأينا في واقعنا شبابا تضيع جهودهم وتفنى عزيمتهم وتنكسر هِممهم على صخرة التعالي وحب الظهور، بين أناس يقولون في كل نصيحة أو رأي أو نقد من الشباب لهم: (اللي فوق عارفين كل حاجة) وبين أناس كلما جاءهم شاب من الناصحين الناقدين قالوا : (انت لسة ملتزم جديد، انت مش عارف أنا قرأت كام كتاب، وانت مدرستش أي حاجة) وغير ذلك من القُبح في القول، ولننظر إلى تعامل الراهب مع الغلام : " أي بُني: إنك اليوم أفضل مني " وذاك هو الإخلاص والتجرد وإنكار الذات الذي يجب أن يتسم به كل داعية، والدعوة ليست بالعمر الذي يعيشه الإنسان فيها ولكنها بالإيمان والكفاءة والأثر.

ومميزات أخرى لا بد أن تكون في الداعية نجدها في ذلك المقطع من القصة، من أهمها: الوجدانية التي تعامل بها الراهب مع الغلام في قوله : " أي بني " منطلقا من أن العلاقة في الأساس علاقة إنسانية ناشئة في مجال الدعوة فلا بد أن تتسم بالوجدانية والحب والرفق واللين، والحمد لله الذي أنعم علينا بدعاة إلى الله في زماننا لا نرى منهم إلا الرفق واللين والحب والوجدانية، ولعل أشهرهم في ذلك هو الأسير الأسيف (حمزة أبو زهرة) والذي قال لي يوما في ذلك الأمر: " عامة الشباب اليوم يحتاجون

للرفق واللين، لأنهم وُجدوا في مكان ليس بمكانهم وزمان ليس بزمانهم، فالرفق بهم هو الأصل "..

ومن أهم ما يميز الداعية أيضا، فهمه للدعوة فهما صحيحا ومصارحته للناس بطبيعة هذه الدعوة وظروف السير في طريقها، فنرى الراهب مصارحا للغلام قائلا له: " وإنك ستُبتلى "، وداعية يُخفي على السائرين في طريق الدعوة طبيعة هذه الدعوة وما سيلاقونه في سبيلها، مُضيع لهم مُهلك لهم، لأنهم في أول مواجهة مع البلاء سيرتدُّون على أعقابهم ناكصين عن ذلك الطريق الذي ظنوه مفروشا بالورود والرياحين، وستكون النتيجة في النهاية ترك الدعوة تماما وربما ترك الدين بالكلية والعياذ بالله.

السرِّية..

وبعد بيان مميزات الداعية، يأتي فهمه لأساليب الدعوة جيدا واستخدامه الأسلوب المناسب لواقعه، فنراه يُتبع بيانه للغلام بأنه سيُبتلى بقوله : " فلا تدل علي "..

والسرية في منهج الحركة يُعطي بها الدعاة لأنفسهم فرصة تجميع الطاقات وحشد الإمكانيات، في واقع يكون الاستضعاف هو الغالب على الدعوة، وذلك أمر تحدده ظروف الدعوة في واقعها.

ويبين الكاتب أن أسلوب السرية تاريخيا كان مرحلة أساسية في تاريخ الدعوة منذ بدايتها، فنوح عليه السلام استخدم ذلك الأسلوب، وموسى عليه السلام وُلد في تلك الظروف حين كانت أمه وأخته تمارسان السرية، ولقد وُجد في ذلك الواقع وتلك الدعوة تنظيم سري دقيق يتمثل في إيمان رجل من آل فرعون وإيمان زوجة فرعون نفسه، ولقد مارس النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الأسلوب أيضا في بداية دعوته، وعلى كل داعية أن يمارس ذلك الأسلوب إذا اقتضى الأمر ذلك وفقا لظروف واقعه هو.

ارتباط الدعوة بالنفع العام للناس..

تلك قضية مهمة نبه الكاتب عليها أيضا من خلال القصة، وهي أن الدعوة لا بد أن تمثل للناس الخير والنفع، ولا بد من سير الدعاة بين الناس بالمعروف تأليفها لقلوبهم، مما يؤكد على إنسانية هؤلاء الدعاة وحبهم للبشر، لا كما يصل للناس من صور للدعاة بأنهم يحبون الشر للناس ويكرهون لهم الخير، ولا بد من ربط كل نفع للناس بالله سبحانه وتعالى، وفي ضوء هذا نرى الغلام يسير بين الناس محققا فيهم قدر الله بالشفاء والمداواة من سائر الأدواء مع ربط ذلك بالله في قوله لهم: " أنا لا أشفي، ولكن الله هو الذي يشفي "، وقضية النفع للناس شأن جميع الأنبياء، وفي هذا يسرد الكاتب الأدلة من الكتاب والسنة، وأمر مهم ينبه عليه الكاتب هنا وهو أن الغلام بمداواته للناس من سائر الأدواء كان يُنشئ تيارا مرتبطا بكيان الإنسان في واقع يبدد السحر فيه طاقة الفكر وقوة الذهن، فبإحساس الإنسان بكيانه يحس بالواقع فتتبدد طاقة السحر تماما ويضيع تأثيرها، وبربط قضية الدعوة بواقع الناس وتأليف قلوبهم عليها، أصبح للدعوة تيارا قويا امتد إلى كل مجالات المجتمع، حتى أنه وصل لجليس الملك الأعمى الذي رد الله له بصره بعدما وضح له الغلام أن الله هو الشافي، فحينها آمن جليس الملك فشفاه الله.

وربط المنفعة المقدمة للناس، بالعقيدة المعروضة أمر مهم جدا نبه عليه الكاتب، وهو الأساس الأول الذي تقوم عليه فكرة تأليف القلوب في الدعوة، وهذا الارتباط هو الذي يعطي لتلك العقيدة قيمتها في نفوس الناس ابتداءًا.

ويسير الكاتب ليدلل على تلك القضية بمواقف من سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ومن سيرة نبي الله يوسف –عليه السلام–، ومن سيرة ملكة سبأ، موضحا أن حقيقة الإيمان كامنة في نفس كل إنسان ولا ينقص إلا أسلوب الدعوة الصحيح الذي يتعامل به الدعاة مع الإنسان لتتكشف تلك الحقيقة بإذن الله.

السرِّية والعلنية.. مقارنة بسيطة.

مع تحرك الغلام بالمداواة بين الناس، تكون الدعوة انتقلت من السرية إلى العلنية، ولذلك لم يقل الغلام لجليس الملك: (فلا تدل علي)، وعقد الكاتب مقارنة بسيطة بين السرية والعلنية من نواحي أربعة نذكرها باختصار..

*** أسلوب الارتباط: في المرحلة السرِّية، ارتباط فردي مثلما كان بين الراهب والغلام، وفي المرحلة العلنية، ارتباط عام مثلما كان بين الغلام وجليس الملك الذي سمع به من الناس.**

*** البناء التنظيمي: تتضح في ممارسة كل فرد للدعوة حسب كفاءته، فالراهب لم يكن يملك التأثير العلني فظل في السرِّية، والغلام يملك التأثير العلني فانتقل من السرِّية للعلنية.**

الحد الفاصل بين السرِّية والعلنية قول الراهب للغلام: " فلا تدل علي ".

*** نظام التحرك: في المرحلة السرِّية، التحرك محدود مثلما كان يلتقي الغلام بالراهب في طريقه للساحر فقط، ومثال على ذلك أيضا دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي المرحلة العلنية، تحرك عام مثلما كان يتحرك الغلام بين الناس بالمداواة لأدوائهم ومثله تحرك النبي –صلى الله عليه وسلم– في المدينة.**

*** مدى الإمكانيات: والمقصود بالإمكانيات، القدرة على التأثير العلني مع القدرة على مواجهة السلطة الجاهلية الذي ستحاول القضاء على ذلك التأثير العلني، وهذا ما حققه الغلام في علنيته، لأنه كان على يقين أن الملك كان لا يستطيع قتله وظهر ذلك في نهاية القصة.**

لقاء الغلام بالملك..

انكشفت الدعوة في النهاية للملك، حين رأى جليسه قد أبصر.. وكانت لحظة الجهر بالإيمان أمام الملك الظالم مدعي الربوبية.. حينها قال الجليس: " ربي وربك الله " جوابا على سؤال الملك " أولك رب غيري؟! ".. فأخذ الملك جليسه فعذبه عذابا شديدا حتى دل على الغلام، فكان اللقاء الأول بينهما، وكانت أول المهازل حين قال الملك للغلام مناديا إياه: " أي بني " في خبث ودهاء ومكر شديد بالغلام، يريد الضغط على نفس الغلام ويغريه بالقرب منه بما يضمن له حياةً مترفة ومستقبلا زاهرًا..

وكعادة كل الطواغيت من قبل ومن بعد، حاول الملك سرقة ما كسبه الغلام من تقدير في نفوس الناس بنسبة ما يفعله الغلام إلى السحر قائلا: " قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل ما تفعل " وهذا ما يصنعه من لا يريدون الاعتراف بالحق دائما، فيفسرونه بأي شيء غير الحق، وقد سرد الكاتب لهذا الأمر أدلة من القرآن الكريم مذُيّلا عليها بأن الملاحظة الدقيقة في تفسير أصحاب الباطل للحق بغير الحق هي شرط أن يكون هذا التفسير مقبولا عند الناس.

وفشلت في النهاية محاولات إغراء الغلام فما كان من الملك إلا أن عذب الغلام الذي كان يناديه منذ قليل بقوله: " أي بني " .. " فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ".

وقفة مع التعذيب..

دل الغلام على الراهب بعد تعذيبه من قِبل الملك، وليس ذلك خيانة ولا عمالة ولكنها الطاقة البشرية المحدودة، والشعور الطبيعي في لحظة كهذه هو التضاؤل أمام النفس، واحتقارها وكرهها لأنها استسلمت وأدت للإمساك بإنسان آخر، وواجب الجماعة في ذلك

الموقف التعامل مع الشخص برحمة والنظر إليه نظرة إعذار مادين له يد العون للخروج من تلك اللحظة.

وينبه الكاتب على أن الحد الفاصل بين كون الإنسان معذورا في ذلك أو مقصرا، هو بلوغ حد الاستطاعة في الصبر والتحمل والثبات، ولا يكون بلوغ الحد إلا بمعرفة إمكانية المواجهة الصحيحة لمحنة التعذيب.

أهم عناصر إمكانية المواجهة هي دخول المحنة بالعزم المسبق على مقاومة الانهيار، بحيث ينشئ العزم المسبق نوعا من الإرادة ومقاومة الانهيار.

وإذا راودت الإنسان نفسه بأن يستسلم فعليه ألا يفقد الثقة وأن يؤجل قراره الداخلي بالكلام أطول فترة ممكنة، وعليه أن يواصل مقاومة الانهيار حتى ولو بدأ في الانهيار، والمقاومة الدائمة هي أكبر إمكانيات المواجهة.

وأهم العوامل المساعدة على المقاومة هي المتابعة الذهنية عند الفرد لمراحل التعذيب والغرض المحدد لكل مرحلة، وإدراك مثل هذه الأغراض هو الذي يُمكّن الفرد من تفادي الأثر المطلوب منها.

وأساليب التعذيب لا تتجاوز في مجموعها غرض سلب الإرادة، وأخطر الأساليب المحققة لذلك هو الإهانة النفسية.

وإذا قويت كرامة الفرد وعزيمته قويت إرادته، ومن هنا كان الشعور بالاستعلاء والعزة من أهم موانع فقد الإرادة والانهيار.

والفزع والترويع هما أخطر آثار التعذيب، ولا يبطله إلا الطمأنينة والسكون، ويحقق الطمأنينة ذكر الله عز وجل " ألا بذكر الله تطمئن القلوب "، كما أن الصيغ المتعددة للذكر تعالج بصورة مباشرة الآثار المتعددة للتعذيب.

وكذلك يهون التعذيب والقائمين عليه برضى الله -سبحانه وتعالى-، وهذا المعنى مأخوذ من دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- في الطائف لما رموه بالحجارة.

وفي النهاية فإن ما يذهب بمحنة التعذيب وكأنها لا تكون هو تذكر عذاب الله وعدم المقارنة بينه وبين فتنة الناس، حيث لا وجه للمقارنة.

قتل الجليس والراهب..

بعد تعذيب الغلام دل على الراهب، فجيء به فحاول الملك إرجاعه عن دينه فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، وكذلك فعل الملك مع الجليس بعده، وذلك أشد ما يتعرض له الدعاة إلى الله من العذاب، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الجزء للصحابة حين استعجلوا النصر، قائلا لهم: " ولكنكم قوم تستعجلون "

وهكذا يتعامل الظلمة مع دعاة الحق دائما في كل زمان ومكان.. إما الرجوع والردة عن الدين وإما الحرب والقتل والتشريد، فلا فرصة للنقاش ولا سبيل إلى الإقناع.

ونلاحظ أن الملك عرض عليهم الارتداد عن الدين قبل قتلهم، لأن في ارتدادهم قتل للدعوة، وفي قتلهم حياة للدعوة.

محاولة إرجاع الغلام عن دينه..

بعد قتل الجليس والراهب لم يبقَ من الدعوة إلا الغلام، وكانت إرادة الملك في البداية عدم قتل الغلام حتى لا يسبب له ذلك حرجا وبلبلة في عقول الناس، لأن الغلام كان معروفا للناس بأعماله الطيبة وبحبه للخير، ومن ناحية أخرى يريد أن يثبت للناس بإرجاعه للغلام عن دينه أن هذا الغلام لم يكن على شيء، ومن ناحية ثالثة يريد الاستفادة من الغلام فيما بعد في السحر.. فكان الحل في النهاية أن أمر جنوده ليصعدوا به الجبل ويلقوه من فوق.

وينبه الكاتب على ملمح هام في هذا المقطع، وهو أن تصرفات الملك كانت مدروسة ومحسوبة جيدا، وكذلك الجاهلية في كل وقت وحين، تدرس وتحسب كل ما تفعله وتضع الخطط وتمكر وتكيد بهدف واحد، ألا وهو التخلص من الدعوة إما بارتداد الدعاة وإما بقتلهم.

ويذهب الجنود بالغلام، وما كان منه إلا أن اتجه إلى الله بالدعاء في إخلاص كامل وتوكل تام على الله قائلا: " اللهم اكفنيهم بما شئت ".. بأي كيفية يرضاها الله، وبأي طريقة يريدها، وبأن سبب يختاره عز وجل، والتوكل في جوهره انطلاق إيماني لا يتقيد بضيق الواقع، وارتفاع وجداني لا يهبط بشدة الظروف.

ولما كان التوكل متحققا، تحققت الاستجابة من الله فاهتز الجبل بهم فسقط الجنود وأنجاه الله، ورجع الغلام يمشي إلى الملك.

وقفة هامة..

لماذا عاد الغلام للملك رغم أنه كان يستطيع الهرب والنجاة بحياته؟!

يحكي الكاتب أن سبب عودة الغلام للملك هو أن الدعوة لم تتم، وليست الحياة هدفا يحرص عليه الدعاة إلا من خلال كونها ضرورة من ضرورات الدعوة سواء أكان تحقيق هذه الضرورة يتطلب الحرص على الحياة أو يتطلب الحرص على الموت.

والذين يفسرون مصلحة الدعوة بالحرص على حياة الدعاة فحسب هم أصحاب التصور الناقص الذي لا يعدو أن يكون فلسفة للجبن أو خطا للارتداد عن سبيل الله. وكذلك الذين يندفعون إلى الموت برغبتهم النفسية دون اعتبار لمصلحة الدعوة إنما يبددون بذلك الاندفاع والتهور طاقة الدعوة وإمكانياتها.

ويرجع الغلام للملك فيرسله الملك مع جنود آخرين إلى البحر فيدعو الغلام ربه بنفس الصيغة فينجيه الله ويعود للملك مرة أخرى، مُطْمَئِنا يستقر في قلبه أن الأمة لو اجتمعت

على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، ولن تكون الحركة صحيحة إلا إذا تحقق في ضمير كل داعية هذا الاطمئنان الذي كان عند الغلام.

موت الغلام.. نهاية حياة الداعية، وإيمان الناس أجمعين.

ويرجع الغلام للملك ليخبره أنه لن يستطيع قتله إلا إذا نفذ ما يأمره به، وذلك أول أمر يتلقاه الملك بعد عجزه عن قتل الغلام، فقد أصبح عاجزا يتلقى الأوامر بعد أن كان يعطيها.

ويأتي الأمر للملك من الغلام أن اجمع الناس في صعيد واحد، بغرض أن يشهد الناس الأحداث ويفهموا معناها، وهذا الأمر من الغلام لأن الحكام يخفون الحقائق التي تساعد الناس على الفهم وتأخذ بأيديهم إلى الإيمان، وكذلك أمر موسى -عليه السلام- فرعون بجمع الناس يوم الزينة.

ثم يدل الغلام الملكَ على طريقة قتله قائلا: " وتصلبني في جذع شجرة، ثم تأخذ سهما من كنانتي، ثم تضع السهم في كبد القوس، ثم قل باسم الله رب الغلام " وفي كل أمر من تلك الأوامر فائدة وتوجيه للناس والملك.

فنرى في صلبه على شجرة توجيه للناس أن هذا الغلام صغير ضئيل ضعيف في جذع شجرة، حتى يسهل على الناس انطلاقهم بإحساسهم نحو الإيمان بالله الذي ينصر ذلك الفتى الضعيف، ونرى السهم من كنانته هو لتتأكد رغبته هو في القتل لا رغبة الملك، وقد كان وضع السهم في كبد القوس طبيعي لكن ليكون كل أمر للملك من الغلام دون تصرف منه، وأما قوله باسم الله رب الغلام فلربط الناس بالله القدير الذي قدر قتل الغلام برغبة منه وسبب من عنده فيؤمن الناس بالله.

ونفذ الملك ما أمره به الغلام، وكان ما أراده الله -عز وجل-، فآمن الناس وقضى الله أن كلمته هي العُليا، ولا راد لقضائه -سبحانه-، " والله من ورائهم محيط ".

ولقد كان آخر ما قاله الغلام هو أمره للملك بأن يقول: " باسم الله رب الغلام " وبهذه الكلمة فتح الغلام للناس باب الإيمان، وهو الذي كان يمشي بينهم بالنفع والمداواة لسائر أدوائهم، ولم يكن ينقصهم سوى أن يعرفوا أن للغلام ربا هداه إلى محبتهم وأذن له بشفائهم، وباسمه سبحانه يتحقق عجز الملك، وباسمه يموت الغلام.

وبذلك يظهر عجز الملك مدعي الربوبية بقوله : " باسم اللهم رب الغلام " وبذلك ينتهي الخوف من الملك، وعندما انتهى الخوف من الملك المقهور وبدأ التعاطف مع الغلام، بدأ الناس في الإحساس الصحيح بالموقف.

وأصبحت الصورة كالتالي: غلام صغير يحب الناس ويقدم لهم المنافع والخير، يموت برغبته من أجلهم، بعد أن أثبت عجز الملك وضعفه من أجل أن يؤمنوا بالله رب الغلام.

واستجاب الناس واندفعوا قائلين: " آمنا برب الغلام " " آمنا برب الغلام "

حقائق قدرية..

حين رمى الملكُ الغلام في صدغه لم يمت الغلام إلا بعد وضع يده في صدغه، وفي ذلك حقيقة قدرية، وهي حقيقة الربط بين السبب والنتيجة وهي لحظة الفرق بين الضرب بالسهم وموت الغلام، حيث يتضح عدم ربط السبب بالنتيجة، لأنه لم يمت حين وقع السهم في صدغه، وإنما حين وضع يده في صدغه.

وقد سبق تلك الحقيقة عدة حقائق..

ففي القصة نرى نتيجة تتحقق بعكس مقصود البشر من السبب، وذلك حين أراد الملك والساحر تعليم الغلام السحر وأخذه في طريق دعوة الضلال، فكانت النتيجة ما أراده الله بأن يكون داعية للحق، وفي نفس طريق الغلام للساحر يقعد للراهب ويسمع منه ويُعجب بكلامه.

وفي القصة النتيجة الهائلة بالسبب البسيط، وذلك حين قتل الغلام الدابة بحجر صغير، وهو المعنى المتحقق أيضا بهزيمة الملك من غلام صغير.

وفي القصة النتائج المختلفة بالسبب الواحد، وذلك حين أهلك الله الجنود بإسقاطهم من الجبل، وحين أهلكهم بإغراقهم.

ومن مجموع هذه الحقائق نفهم قوله تعالى في سورة البروج: " فعال لما يُريد "

حفر الأخاديد للناس.. ونهاية القصة.

آمن الناس كلهم، وأتى الملك على جنوده فأمرهم بحفر الأخاديد وأضرموا فيها النيران، ورغم ذلك لم يتراجع الناس ولم يتوقفوا عن الاندفاع من كل طريق، وهنا مكر الملك مرة أخرى فقال: " من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم " ليقاوم كل إنسان حب البقاء في نفسه فيكون أقل مقدار للضعف كافيا للتراجع وسببا للارتداد، ولكن الإيمان كان أقوى، وعالجت قوة الاندفاع الأصيل إلى الموت أثر أي ضعف كان كامنا في النفوس.

ويأتي المشهد الأخير في القصة، ليعالج في النفوس حب الحياة " جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق "

وتبقى مشاهد العذاب وأخاديد النيران بشررها المتطاير ولهيبها ترتفع ألسنته بأجساد المؤمنين الطاهرة.

ويبقى أثر تلك النار في قلب كل مؤمن استضعافا في الأرض، وجاهلية في الحياة ترتفع ألسنتها كلما استشهد شهيد في سبيل تلك الدعوة من أجل التمكين لها في تلك الأرض وهذه الحياة.

ويمهل الله للظالمين ويؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، ليعذبهم يوم القيامة بالنار التي عذبوا بها المؤمنين في الدنيا، لكن نار الدنيا لا تساوي شيئا في ألمها أمام نار الآخرة، فيكون الجزاء من جنس العمل.

تعليق أخير..

تمثل تلك القصة تجربة كاملة للدعوة، فعلى كل سائر في طريق الدعوة أن يتدبرها ويستخرج منها العِبر، ومهما حاولتُ من تلخيص للكتاب فلن أستطيع استيفاء كل ما فيه، ولا يُغني التلخيص عن قراءة الكتاب أبدا، لكنه بمثابة تشويقة للكتاب ووقوف على ملامح القصة الأساسية، وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من نقص فمني ومن الشيطان، ونسأل الله الإخلاص والقبول.

والحمد للّه رب العالمين